الفصل السابع

صور من التجديد الحركي لحياة المرأة

الفصل السابع

صور من التجديد الحركي لحياة المرأة

إن الخدمة الكبرى التي قدمها الإسلام للمرأة هي بث الوعي الحركي فيها للتفاعل مع الواقع المتردي ومحاولة توجيه وتغيير اهتماماتها نحو أمور جديدة وتحويلها إلى طاقة حركية عظيمة تغير وتؤثر في المجتمع المحيط بها وحولها إلى ينبوع لا ينضب من العطاء والإبداع والابتكار والحركة.

وسنتناول أولاً الصورتين اللتين حصلتا مع نفس الصحابي ونفس المرأة ـ زوجته ـ ونلاحظ من خلالهما التطور والارتقاء الإسلامي بالمرأة وسنخرج ببعض الدلالات والنتائج لهاتين الصورتين.

ولنتأمل هاتين الصورتين الأولى مع الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وزوجته، والثانية مع الخليفة الراشدي الثاني أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وزوجته، يقول عمر رضي الله عنه في الصورة الأولى: «والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم، فبينما أنا في أمر اتمره إذ قالت لي امرأتي: «لو وضعت كذا وكذا» فقلت لها: وما لك أنت ولم هنا؟ وما تكلفك في أمر أريده؟ فقالت لي: «عجباً يا ابن الخطاب ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك (تعني السيدة حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضي الله عنها) لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان (فآخذ ردائي ثم أخرج مكاني حتى ادخل على حفصة) فقلت لها «يا بنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان» فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه»، فقلت: «تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله»، ثم خرجت حتى أدخل على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها فقالت لي: «عجباً لك يا ابن الخطاب، لقد دخلت في كل شيء، حتى

تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه؟» فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض ما كنت أجد، فخرجت من عندها[1].

الصورة الثانية: والتي حصلت مع عمر أمير المؤمنين نفسه وزوجته فهي: أن رجلاً جاء إلى عمر يشكو له خلق زوجته فوقف في بابه ينتظر خروجه فسمع امرأته تستطيل عليه بلسانها وهو ساكت لا يجر جواباً فانصرف الرجل قائلاً: «إذا كان هذا حال أمير المؤمنين فكيف حالي؟ فخرج عمر فرآه مولياً فناداه وقال له: ما حاجتك «فقال يا أمير المؤمنين جئت أشكو إليك خلق زوجتي واستطالتها عليَّ فسمعت زوجتك كذلك فرجعت وقلت: «إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي فقال: يا أخي احتملها لحقوق لها عليَّ إنها طباخة لطعامي وخبازة لخبزي وغسالة لثيابي، مرضعة لولدي وليس ذلك واجب عليها ويسكن بها قلبي عن الحرام[2].

ويمكن أن نخرج من هاتين الصورتين بالدلالات التالية:

١ـ يتبين من كلام عمر رضي الله عنه، نظرة العربي للمرأة ـ قبل الاسلام ـ تلك النظرة السلبية والحالة الجمودية القاتلة التي عاشت بها المرأة العربية ـ وغير العربية ـ وعدم تفاعلها مع الأحداث.

٢ـ إن هذه المراجعة لم تكن عند العرب قبل الإسلام وإلا لما استغرب عمر واستهجن هذه الفعلة من زوجته ولما ذهب يتأكد من صحة كلامها ـ حول مراجعة زوجات الرسول ﷺ ـ من ابنته حفصة.

٣ـ إن الإسلام ارتقى بحرية المرأة المنزلية أولاً فإذا كانت زوجات الرسول ﷺ وهن القدوة لكل المسلمين والمسلمات يخالفنه في آرائه أو يراجعنه في آرائه الشخصية

---

(١) الإسلام والمرأة سعيد الأفغاني نقلاً عن السمط الثمين في مناقب أُمهات المؤمنين.

(٢) المرأة في الإسلام/ محمد جميل ميهم/ نقلاً عن إرشاد العباد ص١٤٤.

وهو الرسول ﷺ وقدوة كل الرجال المسلمين والنساء المسلمات، فكيف بغيره من الرجال. إن مراجعتهم في الأمور الدنيوية التي تعتمد الآراء الشخصية أولى[1].

٤ـ حرص الإسلام على الارتقاء بالمرأة نحو التفاعل في الحياة الزوجية من خلال تلاقح الآراء بين الزوجين لأجل خيرهما وخير الأسرة للخروج برأي واحد يتفق عليه الطرفان واحتمال الخطأ يكون فيه أقل، وهذا لا يتأتى إلا من خلال الاعتراف بقدرة المرأة على التفكير ومعالجة كافة القضايا المنزلية والأسرية مثلها في ذلك مثل الرجل بل قد تتفوق عليه أحياناً في معالجة مثل هذه الأمور ولا يأتي كذلك إلا بمنع الرجل من تعطيل التفكير الفاعل الإيجابي عند زوجته بالاستبداد في الرأي عند ذلك ينمو التفكير النسوي الفاعل للوصول إلى الحياة الأسرية الفاعلة.

٥ـ إن الإسلام أراد ترتيب السلطة الذكورية وصياغتها صياغة جديدة تتناسب مع المعطيات الجديدة والواقع الجديد من خلال تقييد السلطة الذكورية والحد منها مقابل إخراج المرأة من حالة الامّعية إلى دور جديد للمرأة للمساهمة في إدارة كفة الأمور.

٦ـ إنه أراد إشعار المرأة بمشاركتها في صنع القرار مع الرجل مما يضفي إلى شخصيتها بعداً آخر يعطيها ثقة في نفسها واعتماداً أكثر على ذاتها في تنفيذ القرار الذي ساهمت في إقراره وإخراجه، بل وتساهم في تحمل النتائج المترتبة على هذا القرار مما يعطيها قدراً أكبر في تحمل المسؤولية أو بمعنى آخر هيكلة المرأة هيكلة جديدة بحيث تصبح قادرة على تحمل المسؤولية.

٧ـ أبطال الطاعة المطلقة للزوج أو أي إنسان آخر دون قيد أو شرط واستبدالها بطاعة

---

(١) يجب أن يفهم من هذا الحديث أن نساء النبي (ﷺ) كن يراجعنه في الأمور الدنيوية ـ لا الأمور الدينية التي كان يصدر فيها حكم شرعي واضح ـ وهي الأمور التي كان الرسول (ﷺ) يدخل رأيه الخاص فإن كان هذا الرأي موحي من عند الله فلا يراجعنه إطلاقاً بل ولا يتفوهن بكلمة حول هذا التشريع الإلهي الجديد.

مشـروطة بطاعة الله أولاً ثم طاعة رسول الله ﷺ ثانياً. ومن ثم أن لا تتعارض مع مصـالـح الفـرد والأسـرة والمجتمع وتتناسب الطاعة مع القاعدة الشرعية في نظام المنزل. و هي التزام كل من الزوجين العمل بإرشاد الشرع في كل ما هو منصوص عليه والتشاور والتراضي في غير المنصوص عليه ومنع الضرر والإضرار وعدم تكليف إحداهما الآخر ما ليس في وسعه.

٨ـ إن الذي ثار على مراجعة زوجته له ورأى أن تلك إهانة له لا تغتفر هو نفسه الذي تقبل مراجعة زوجته له في الحالة الثانية ـ بل وفوق الحد المطلوب ـ وهو في الأولى فرد من الصحابة، أما في الثانية كان أميراً للمؤمنين وتحمل لا المراجعة فحسب بل واستطالة لسان زوجته عليه، وهو الذي يهابه كل السلاطين على وجه الأرض، ولكن يتحمل زوجته.

٩ـ إن هذا الارتقاء بين شخصية عمر في الحادثة الأولى وشخصية عمر في الحادثة الثانية لم يكن نتيجة حرص العرب على إعطاء الحرية للمرأة حتى داخل بيتها ولا نتيجة لجهود النساء للحصول على تحررهن من السلطة الذكورية بل كان ذلك نتيجة تغيير شخصية عمر بن الخطاب عابد الأصنام إلى شخصية عمر بن الخطاب عابد الله عز وجل وبالتالي تشكيل عقلية عمر بشكل جديد ـ وغيره من الصحابة ـ هذه التشكيلة الجـديدة التي غيرت نظرة أتباع محمد ﷺ للكون والحياة والإنسان هي نفسها التي غيّرت نظرتهم للمرأة.

١٠ـ يتضح من هاتين الصورتين الدرجة التي استطاع الصحابة وزوجاتهم رضوان الله عليهم أجمعين، التفـاعـل مع الدين الجديد ولو كان ذلك على حسابهم أو على حسـاب مكـانتهم الاجتماعية مقابل أن تعود المكانة الاجتماعية والأسرية اللائقة لشقيقتهم المرأة وتعاملوا معها بناء على التصور الإسلامي للعلاقة المقدسة بينهما.

١١ـ إن المـرأة بدأت في الحـالة الأولى تتململ في التفاعل مع المنهاج الجديد للحياة، وفي الحالة الثانية ظهرت ملامح الارتقاء بين الرجل والمرأة جلية واضحة.

١٢ـ إن هذا الحال لم يكن لزوجة عمر فحسب، وإنما كان حال قطاع واسع من نساء المسلمين بدليل أن هذا الرجل جاء حتى يشتكي من نفس الحالة ـ من طول لسان زوجته عليه ـ فعمر لم تكن الحالة النادرة الفريدة الوحيدة التي تحصل معه من هذه الأمور.

١٣ـ إن رأي عمر بأن عمل المرأة ليس واجب عليها داخل بيتها، وإذا قامت به فهو تبرع منها تثاب عليه[1].

١٤ـ إن الحادثة الأولى لا تعني إن استطالة المرأة على زوجها هو حق مشروع لها، ولكن لمراجعة الزوجة حد يقف عنده فهو مضبوط بمعيار لا يخرج عن الأدب العام أو الذوق العام، هذا إن رأت أن زوجها أخطأ فعلاً وإلا فلا.

لقد نجحت العقيدة الإسلامية نجاحاً واضحاً لا غبار عليه في التطور والارتقاء بالأوضاع القائمة وكان ذلك نتيجة طبيعية للفكرة الإسلامية نفسها المعتمدة على

---

(١) على أن أبا بكر ابن أبي شيبه والجوزجاني قالا «عليها ذلك» واحتجا بقضية علي وفاطمة: فإن النبي (ﷺ) قضى على ابنته بخدمة البيت وعلى علي بما كان خارجاً من البيت من عمل: رواه الجوزجاني قال عليه الصلاة والسلام «لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ولو أن رجلاً أمر امرأته أن تنتقل من جبل أسود إلى جبل أحمر أو من جبل أحمر إلى جبل أسود لكان نولها «أي حقها» أن تفعل ذلك» رواه بإسناده قال: فهذه طاعة فيما لا منفعة فيه فكيف في مؤونة معاشه؟ وقال الشيخ تقي الدين يجب عليها المعروف من مثلها لمثله وجاء في الإنصاف «إنه يرجع بذلك إلى عرف البلد» وبعد فقد يرد بهذه المناسبة قولهم «إذا لم يكن على الزوجة خدمة بيتها وإرضاع أولادها وتربيتهم فمن ألزم بذلك؟».

اعتراض في محله ولكن مَنْ ينظر أن عرب الجاهلية بل كثيراً من الأمم القديمة كانوا يرثون نساء رجل إذا مات كجملة الأمتعة يعلم كم هي الفائدة في أن يُقال لهم أنها في الخدمة والتربية تتفضل عليكم إذ تفعل ذلك فوق واجبها ولا يخشى من يأتي هذا الأمر بتأثير سيء مع تأثيره الحسن من حيث أن تمسك النساء عن العمل البيتي إذ أن ميلهن له ولتربية أولادهن أمر فطري ربما يثرن إذا منعن منه/ المرأة في الإسلام محمد جميل بيهم ص٦١.

الأصـل الفـطري في نفس كل إنسان ومجموعة من الأتباع الذين تميزوا بالإيمان العميق والفهم الدقيق والعمل المتواصل لقلب ا لأوضاع القائمة واستيعابهم للواقع الجديد وتفاعلهم معه . وقابله تعطش واضح من المرأة للحرية ـ الحرية المنزلية على الأقل وذلك أضعف الإيمان ـ وقيادة واعية لما يدور على الساحة من أحداث كانت مثـالاً يحتـذى في كل شيء كانت هذه عوامـل ساعدت على هذه النقلة السريعة والانقلاب الجديد .

وإن لهذا الارتقاء الإسلامي بالمرأة نتائج على الفرد والمجتمع :

١ـ إنهـا تعلم الرجال الشورى في أمورهم اليومية وخصوصاً التي تهم الأسرة ولها ارتباط بالزوجة والأولاد ولا شك أن الزوجة هي أولى من يستشار فيها والأمور التي تهم الـرجل شخصياً للارتباط المقدس بين الرجل وزوجته . فالإسلام الذي يعتبر الأسرة أساس المجتمع وأن المرأة هي أساس الأسرة وإن المجتمع الذي لبنته الأولى اعتـادت على الشورى والحرية فبالتالي سيشكل مجتمعاً كاملاً قائماً على أساس الشوري والحرية . إن الإسلام عندما يبني أسرة لا استبداد فيها ولا سلطة عمياء ، فهو يبني مجتمعاً خالياً من الدكتاتورية والتسلط الأعمى فالأسرة هي التي تخرج الأمراء والوزراء والأعيان والنواب والولاة ، وهؤلاء إن اعتادوا على الحرية والشورى في بيوتهم فسوف يعتادونها في حكمهم وفي تعاملهم مع الآخرين .

٢ـ تعليم المرأة الاشتغال بما يفيد والابتعاد عما لا يفيد وذلك بمشاركتها ولو بالرأي في أعمال زوجها ومعرفتها لما يدور في خلده ومعرفة الطريقة التي يفكر بها ويعمل بها حتى في مصالحه الخاصة ، وهي في هذه الحالة تستطيع أن تدير أمواله أو تجارته مثلاً في حالة غيابه أو وفاته بما يتناسب معها كأنثى .

٣ـ يظهر من خلال هاتين الصورتين أن الإسلام رفع عن المرأة حالة «الإمّعية» التي كانت تحياها وقضىٰ على الفراغ التغييري فيها وبنى فيها بالمقابل شخصية حركية للوقوف في وجه الخطأ مهما كان مصدره لا أن تبقى عنصراً خاملاً بل عليها أن تؤثر

في الأسرة والمجتمع وتتأثر فيها ايجابياً.

لقد انقض الإسلام على الركود الحركي والجمود التغييري والأنامالية السياسية والأمعية الاجتماعية في نفوس اتباعه مخرجاً جيلاً قرآنياً حركياً فريداً. فشكل في المرأة بعداً حركياً قلما كان عند الرجل من قبل ـ بل لم يكن موجوداً أصلاً ـ فمن كان يستطيع أن يقف في وجه كسرى ويقول: (إنك أخطأت أو في وجه هرقل ويقول له إنك أخطأت، إذا كانت هذه لم تكن في الرجال فكيف بالنساء. ولنترك عصور الظلمات ولنأت إلى العصر الحديث هل تستطيع المرأة العربية المتحررة والتي تدّعي أنها محرّرة أن تقف في وجه زعيم عربي وتقول له إنك أخطأت وهي التي تحررت على الطريقة الفرنسية أو الانجليزية أو الايطالية أو الأمريكية وتتبجح بالديمقراطية والحرية الشخصية.

وفيما يلي حوادث ثلاث الأولى تمثل الوازع الديني الحي في نفس المرأة المسلمة والثانية تمثل مشاركة المرأة في الحياة العامة والثالثة تمثل جرأة المرأة المسلمة وصلابتها وهي تمثل صوراً واقعية للتربية الخاصة التي تربتها المرأة المسلمة وأثر ذلك على حياتها العامة.

وسأترك هذه القصص الثلاث بدون تعليق.

إلـه عمر يعلم[1]

نهى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته عن مذق[2] اللبن بالماء، فخرج ذات ليلة في حواشي المـدينـة، فإذا بإمرأة تقول لابنة لها: ألا تمذقين لبنك فقد أصبحت؟ فقالت الجارية: كيف أمذق وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق!!

فقالت: قد مذق الناس فامذقي فما يدري أمير المؤمنين؟ فقالت: إن كان عمر لا يعلم فإله عمر يعلم، ما كنت لأفعله وقد نهى عنه.

فوقعت مقالتها من عمر. فلما أصبح دعا عاصماً ابنه، فقال: يا بني إذهب إلى موضع كذا وكذا فاسأل عن الجارية ـ ووصفها له ـ فذهب عاصم، فإذا جارية من بني هلال. فقال عمر: اذهب يا بني فتزوجها، فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب، فتزوجها عاصم بن عمر، فولدت له بنتاً فزوجها عبد العزيز بن مروان، فأتت بعمر بن عبد العزيز!

---

(١) محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون/ قصص العرب نقلاً عن:
سيرة عمـر بن عبـد العـزيز: ١٧ نهاية الأرب، ٣ـ٢٣٨، مجمع الأمثال ٢ـ١٣٨، ابن أبي الحديد: ٣ـ١١٠.

(٢) المذق: الخلط.

أم(*)

دخل ابن الزبير(١) على أمه(٢) حين رأى من الناس ما رأى من خذلانهم، فقال: يا أمه «خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده مع الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني من الدنيا، فما رأيك؟

فقالت: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك. وإن قلت: كنت على حق، فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار، ولا أهل الدين. . وكم خلودك في الدنيا! القتل أحسن! والله لضربه بالسيف في عز أحب إليّ من ضربه بسوط في ذل، قال: إني أخاف إن قتلوني أن يمثلوا بي! قالت: يا بني، إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها.

فدنا ابن الزبير، فقبل رأسها، وقال هذا والله رأي، والذي قمت به داعياً إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لأن الله تستحل حرمه، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة مع بصيرتي،

(*) محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون/ قصص العرب نقلاً عن: تاريخ الطبري ٧-٣: ٢، بلاغات النساء ١٣٠، العقد الفريد ٢-٢٧١.

(١) عبدالله بن الزبير بن العوام، طلب الخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، وبويع له في الحجاز والعراق واليمن. ومكث خليفة تسع سنوات ثم حاصره الحجاج بمكة، وقتل سنة ٧٣هـ.

(٢) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق وهي من قريش، من فضليات نساء العرب، وأخت عائشة لأبيها توفيت سنة ٧٣هـ، وهذه المحاورة كانت حين حاصر الحجاج ابن الزبير في مكة، وحين خذل عبدالله أعوانه.

فانظري يا أمه فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمي لأمر الله، فإن ابنك لم يعتمد اتيان منكر ولا عملاً بفاحشة، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم أظلم عن عمالي فرضيت به، بل انكرته ولم يكن شيء أثر عندي من رضا ربي، اللهم أني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي، أنت أعلم بي، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً أن تقدمتني وإن تقدمتك ففي نفسي حرج حتى انظر إلامَ يصير أمرك. قال: جزاك الله يا أمه خيراً، فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد. فقالت: لا أدعه أبداً فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق! ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة وبرة بأبيه وبي، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين. ثم ودعها وخرج، ولم يلبث أن قتل رحمه الله.

وهل أحل عندك محل علي[1]

حج معاوية سنة من سنيه، فسأل عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل بالحجون[2]، يقال لها: دارمية الحجونية، وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها، فبعث إليها فجيء بها، فقال: ما حالك يا بنت حام؟ فقالت: لست لحام إن عبتني إنما أنا امرأة من بني كنانة ثمت من بني أبيك، فقال: صدقت، أتدرين لم بعثت إليك؟ فقالت؛ لا يعلم الغيب إلا الله، فقال: بعثت إليك لأسألك: علام أحببت عليا وابغضتني، ووليته وعاديتني؟ قالت: أو تعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال؛ لا أعفيك قالت: أما إذا أبيت، فإني أحببت علياً على عدله في الرعية، وقسمة بالسوية وابغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر، وطلبتك[3] ما ليس لك بحق، ووالیت علياً على ما عقد له رسول الله من الولاء، وعلى حبه المساكين وأعظامه لأهل الدين، وعاديتك على سفكك الدماء، وشقك العصا، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى.

قال: فلذلك انتفخ بطنك! قالت: يا هذا، بهند[4] والله كان يضرب المثل في ذلك لأبي. قال معاوية يا هذه أربعي[5] فإنا لم نقل إلا خيراً فرجعت وسكنت.

فقال لها: يا هذه هل رأيت علياً؟ قالت: أي والله لقد رأيته. قال: فكيف رأيته؟ قالت: رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ولم تشغله النعمة التي شغلتك. قال:

---

(١) محمد أبو الفضل إبراهيم قصص العرب نقلا عن:
العقد الفريد: ١ـ١٣٢، صبح الأعشى: ١ـ٢٥٩، بلاغات النساء ٦٧.

(٢) الحجون: جبل بمكة.

(٣) الطلبة: الطلب.

(٤) هند: أم معاوية.

(٥) ربع: وقف.

هل سمعت كلامه؟ قالت: نعم والله، كان يجلو القلوب من العمى، كما يجلو الزيت والصدأ.

قال: صدقت فهل لك من حاجة؟ قالت: أو تفعل إذا سألتك؟ قال: نعم، قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها. قال: تصنعين بها ماذا؟ قالت: اغذو بألبانها الصغار، واستحي بها الكبار، واكتسب بها المكارم وأصلح بها بين العشائر. قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل عليّ؟ قال: ماء ولا كصدأ[1]، ومرعى ولا كسعدان[2] وفتى ولا كمالك[3]، سبحان الله! أو دونه؟ فأنشأ معاوية يقول:

إذا لم أعد بالحلم مني عليكم ... فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم!
خذيها هنيئاً، واذكري فعل ماجد ... جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال: أما والله لو كان علي حياً ما أعطاك منها شيئاً، قالت: لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين.

---

(١) صدأ: عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها.

(٢) السعدان: نبت ذو شوك، وهو من أفضل مراعي الإبل.

(٣) قاله متمم بن نويرة في أخيه مالك لم قتل في الردة والأمثال الثلاثة تضرب للشيء يفضل على أقرانه.

صور واقعية حديثة للمرأة المسلمة الحركية

إن الإسلام الذي حرر المرأة وبنى جيلاً نسائياً قرآنياً فريداً هو نفسه الآن ينشىء هذا الجيل القرآني الفريد وستكون المرأة أول من يربيه الإسلام تربيته الخاصة المركزة لتشكيل الجيل الانقلابي المنشود.

وحتى لا يقال إننا نركز دائماً على المجاهدات التي رباهن الإسلام من جيل الصحابة وحتى لا يتهم الإسلام بالعجز عن تغيير الواقع المأساوي العام في كل مناحي الحياة وحياة المرأة بشكل خاص في هذا الزمان، أردت أن أتناول في الصفحات التالية قصة واحدة من النساء اللاتي رباهن الإسلام وتفاعلن معه وجاهدن الحكومات الفاسدة في سبيله جهاداً مريراً وسجنت وعذبت وتآمرت الدولة عليها وأغرتها في المناصب مثل منصب وزيرة التنمية الاجتماعية في مصر كل ذلك حتى تخرجها من ثوبها الإسلامي الحركي. ولكن كان النصر مع الصبر فصبرت أمام تعذيبهم وصبرت أمام إغراءاتهم الدنيوية وصبرت أمام سياطهم اللعينة وصبرت أمام نفسها التي كانت لها بالمرصاد.

لقد أردت عرض هذه الصورة الحركية النسوية الواقعية الحديثة حتى لا يكون كلامنا مجرد نظريات مثالية غير قابلة للتطبيق، بل هي حقائق قابلة للتنفيذ وبيسر وسهولة وهذا هو الدليل:

زينب الغزالي رئيسة المركز العام لجماعة السيدات المسلمات في مصر وأكبر رائدات العمل الحركي النسائي الإسلامي في مصر سنعرض قصة هذه السيدة الكريمة عرضاً سريعاً من خلال ما كتبته في مذكراتها في الفترة التي قضتها في

سجون عبد الناصر الإرهابية وأهم الأحداث التي حصلت معها في السجن كل ذلك من خلال كتابها أيام من حياتي[1] ، وهو الكتاب الذي أنصح بقراءته كاملاً من قبل كل رجل امرأة والنساء على وجه الخصوص.

أولاً : بدايات المواجهة مع الطغاة: كانت بدايات المواجهة الحقيقية بين إدارة المركز العام لجماعة السيدات المسلمات ورئيسة الحاجة زينب الغزالي عندما صدر قرار حل المركز أو الجماعة دون مبرر شرعي أو منطقي فرفضت إدارة الجماعة قرار الحل وأرسلت ترد على قرار الحل إلى رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر، ووزير الشؤون الاجتماعية والنائب العام ووزير الداخلية والصحف وقد تضمن الرد بعض العبارات التي نرى من خلالها الدرجة التي يمكن أن تصل فيها المرأة المسلمة من جراءة في الحق وقوة لأجله مهما كان زعيم الباطل وعناصره، ومن هذه العبارات:

«إن جماعة السيدات المسلمات أسست سنة ١٣٥٧هـ/١٩٣٦م لنشر دعوة الله والعمل على إيجاد الأمة المسلمة التي تعيد للإسلام عزته ودولته وكانت لله وستظل لله وليس لأي حاكم علماني حق الولاية على المسلمين»[2].

«جماعة السيدات المسلمات رسالتها الدعوة إلى الإسلام وتجنيد الرجال والنساء شباباً وشيباً لاعتقاد رسالته ودولته الحاكمة بما أنزل الله»[3].

«ونحن السيدات المسلمات، نرفض قرار الحل، وليس لرئيس الجمهورية، وهو ينادي صراحة بعلمانية الدولة، حق الولاء، ولا لوزارة الشؤون الاجتماعية، وكذلك فليست الدعوة أموالاً أو حطاماً تصادره حكومة العلمانيين المحاربين لله ولرسوله وللأمة المسلمة»[4].

إن القارىء لهذه الردود يرى الدرجة التي وصلت إليها المرأة المسلمة في مقاومة

---

(١) زينب الغزالي / أيام من حياتي، دار الشروق.

(٢) + (٣) + (٤) صفحة ١٤.

الباطل وأهله والوقوف في وجهه وإننا نرى مقدار هذه الجرأة ودرجة القوة في الشخصية التي تبعث مثل هذا الكلام إلى رئيس جمهورية مثل عبد الناصر الذي عرف بدكتاتوريته، إذا عرفنا طبيعة المرحلة الناصرية آنذاك والتي لا تزال بعض ملامحها حتى هذه الساعة: تقول الحاجة زينب عن هذه المرحلة:

كان هذا الموقف الشامخ للسيدات المسلمات سنة ١٩٦٤ في قمة عنفوان السلطة الناصرية في الوقت الذي كان فيه الكثيرون يقفون موقف التقية ويقرون الطاغوت على فعله، بل ويصدرون الفتاوي المؤيدة لأفعاله، ويصبغون عليه صبغة ترفعه إلى مكان الألوهية، وما كانت التقية كذلك يوماً في الإسلام لضياع العقيدة والتمويه على المسلمين، ولقد رأينا المجلات الإسلامية تتسابق في إرضاء الطاغوت حتى مجلة الأزهر العزيزة علينا معزته.. وأخذت الفتاوي تتوالى في تجريح المجاهدين الذين أخذوا بالعزيمة ولم يأخذوا بالضلال الذي سماه من أخذ به رخصة. جرّحوا المجاهدين الذين قالوا بالتزام الإسلام لا بالانتماء إليه والإلتزام هو الإسلام أما الإنتماء بغير الإلتزام فشيء آخر[1].

حملت الجماعة النسائية الإسلامية السائرة بكل جد واجتهاد لتحقيق الغاية الإسلامية المنشودة وبدأت المساومة مع زينب الغزالي لارجاع الجماعة وإلغاء قرار الحل، ولكن مقابل ثمن غال عليها أن تدفعه لنظام عبد الناصر فتقول: أخذ رجال المباحث والمخابرات الناصرية يطلبون مقابلتي فيعرضون عليَّ عروضاً لإعادة المركز العام للسيدات المسلمات، وكانت هذه العروض تكلفني أن أشتري الدنيا بالآخرة، وعلى سبيل المثال عرضوا عليَّ إعادة إصدار مجلة السيدات المسلمات بإسمي كرئيسة وصاحبة الامتياز مقابل ٣٠٠ جنيه شهرياً على أن لا يكون لي شأن بما يكتب في المجلة وكان جوابي مستحيل أن تصدر مجلة السيدات المسلمات من مكاتب المخابرات لنشر علمانية العهد لم اعتد إلا أن أكون مسؤولة مسؤولية فعلية وكذلك

---

(١) ص ١٥.

عرضوا عليَّ إعادة المركز العام وصرف إعانة قدرها عشرون ألف جنيه سنوياً على أن تكون إحدى مؤسسات الاتحاد الاشتراكي كانت إجابتي إن شاء الله لن يكون عملنا إلا للإسلام، ولن نموه ولن نضلل، إن الذين يتكسبون بالإسلام لا يستطيعون خدمته وكان هذا الرفض يغضبهم[1].

ثانياً: المرأة زينب الغزالي، والمشاركة في وضع منهاج حركي لضم كل من يريد العمل للإسلام.

إن هذه المرأة المسلمة زينب الغزالي، فهمت الإسلام فهماً شمولياً حركياً واسعاً فهي تشارك في صياغة خطة مع عبد الفتاح عبده إسماعيل ـ أحد عناصر الإخوان المسلمين ـ آنذاك كان الهدف من هذه الخطة تجميع كل من يريد العمل للإسلام لينضم إلى جماعة الإخوان المسلمين أو تجميع السيدات اللاتي يرغبن في العمل الإسلامي داخل صفوف جماعة السيدات المسلمات وتقول زينب الغزالي عن هذه الخطة:

«ومع أوائل عام ١٩٥٨م كانت لقاءاتي قد تعددت بعبد الفتاح إسماعيل في منزلي أو في دار المركز العام للسيدات المسلمات، كنّا نبحث في أمور المسلمين محاولين بكل جهدنا أن نفعل شيئاً للإسلام يعيد لهذه الأمة مجدها وعقيدتها مبتدئين بسيرة الرسول ﷺ والسلف الصالح، ومن بعدهم جاعلين منهجنا مستمداً من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ»[2].

وكانت خطة العمل تستهدف تجميع كل من يريد العمل للإسلام لينضم إلينا، كان ذلك كلّه مجرد بحوث ووضع خطط حتى نعرف طريقنا، فلما أردنا العمل كان لا بد من استئذان الأستاذ الهضيبي باعتباره مرشداً عاماً لجماعة الإخوان... والتقيت بالأستاذ الهضيبي لأستاذنه العمل بإسمي واسم عبد الفتاح عبده إسماعيل وأذن لنا في العمل[3].

---

(١) ص ١٦.

(٢) + (٣) ص٣٢.

وفي سنة ١٩٥٩ انتهت بحوثنا إلى وضع برنامج للتربية الإسلامية واشهد الله على أنه لم يكن في برنامجنا غير تربية الفرد المسلم الذي يعرف واجبه تجاه ربه وتكوين المجتمع المسلم الذي سيجد نفسه بالضرورة مفاصلاً للمجتمع الجاهلي[١].

ولمال كانت جماعة الإخوان المسلمين معطلاً نشاطها بسبب قرار الحل الجاهلي سنة ١٩٥٤، كان ضرورياً أن يكون النشاط سرياً»[٢].

ثالثاً: زينب الغزالي في السجن:

وكان رد فعل الطغاة على شجاعة وصلابة هذه المرأة المسلمة التي فهمت الإسلام فهماً حركياً شمولياً تغييرياً لا إسلام الزوايا وإسلام اللامبالاة.

لقد اعتقلت وادخلت السجن الحربي وتصف العذاب والويلات التي واجهتها في هذا السجن فتقول: سمعت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر فرددت الأذان ثم تيممت وصليت، أمضيت على هذه الحال ستة أيام على التوالي من مساء يوم الجمعة ٢٠ أغسطس إلى الخميس ٢٦ أغسطس لا يفتح باب الزنزانة فلا أكل ولا شرب ولا دورة مياه ولا صلة بالخارج غير تلصص هذا الشيطان الذي يفتح عينه على فتحة باب الزنزانة الصغيرة بين الحين والحين، ولك أن تستشعر أيها القارىء العزيز كيف تستطيع أن تعيش هكذا، وإذا استطعت أن تعيش بلا طعام ولا ماء فكيف يستغني الإنسان عن قضاء الحاجة الضرورية، كيف يعيش الإنسان بغير أن يذهب إلى دورة المياه ولو مرة واحدة في اليوم؟[٣].

وحتى عندما سمح لها الجلادون باستخدام دورة المياه بعد ستة أيام فإنها رفضت استخدامها والسبب كما تقول: «ولما عرضت إغلاق باب المرحاض قال ممنوع إغلاقها فخرجت من المرحاض وقلت له ارجعني إلى الزنزانة لا أريد شيئاً،

---

(١) + (٢) ص٣٣.

(٣) ص٥١.

قال في وحشية والجاهلية تطغى عليه وعلى المكان ادخلي يال بت الـ . . أمال احنا حنحرسكم ازاي يا أولاد الـ . . أريد من القارىء أن يتصور معي هذا الموقف أي جاهلية وأي إلحاد يبيح ذلك[1].

ولكن لا نستغرب هذه الصورة الأولية للعذاب، فقد كان على زبانية السجن الحربي ـ بأمر عبد الناصر ـ أن يعذبوها فوق عذاب الرجال فتقول وفجأة أضيء النور ودخل صفوت ومديره قائلاً: اقرئي هذا الخطاب يا بنت!! نظرت إلى الخطاب فوجدت مكتوباً في أعلاه مكتب رئيس الجمهورية ثم مكتوب في صلبه بالآلة الكاتبة ـ بأمر جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية ـ تعذب زينب الغزالي الجبيلي فوق تعذيب الرجال! التوقيع، جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية، ومختوم بخاتم شعار الدولة الخاص برئاسة الجمهورية، قرأت الخطاب ثم أعدته إلى صفوت قائلة الله أكبر منكم جميعاً، نحن معنا الله.

أخذ يرمني بنظرات شرسة ويقذف من فمه بقذرات من السب المفزع ولم أنطق بكلمة واحدة فأغلق الزنزانة»[2].

*** * من صور التعذيب:**

«فخرج صفوت ـ أحد كبار الجلادين ـ وأتى بعامود غليظ من الحديد وقاعدتين من الخشب وجاء ثلاثة من الزبانية يحمل كل منهم سوطاً وأعدوا الآلة يعلقوني عليها، ويخرج الأمر من شمس بدران ـ كبير طغاة السجن الحربي ـ كضابط عظيم في ساحة الوغى اجلدوها يا صفوت خمسمائة جلدة.

وتنهال السياط تسطر في قدمي وجسدي أبشع ما عرفته البشرية من قسوة وحيوانية ويشتد الجلد ويشتد الألم ويعز عليَّ أن أضعف أمام هؤلاء الوحوش احتملت، احتملت وأنا أضرع إلى الله في سري.

---

(١) ص٥٢.

(٢) ص٩٠.

كان الألم فوق الاحتمال والدم ينزف من قدمي ويأمر شمس بدران صفوت بإيقافي، كنت في غاية الألم والجهد فحاولت أن استند إلى الحائط فيبعدني صفوت عن الحائط بسوطه، فيستمر شمس بدران في جاهليته: ردي عليَّ أين. . . ؟ فلزمت الصمت فقال ردي!! فقلت بصوت خافت لشدة ما أنا فيه الله سبحانه وتعالى الفعال ذو القوة المتين، وأخرجوني من مكتب شمس بدران إلى المستشفى[1].

هذه صورة من صور التعذيب ـ الجلد بعد التوثيق أو التعليق أو بهما معاً ـ وهي صورة تتكرر كثيراً مع زينب الغزالي في عمليات التعذيب الإرهابية التي تعرضت لها والسبب بين واضح أنها تشارك في التخطيط والعمل لمجتمع إسلامي أمثل.

صورة ثانية من صور التعذيب وهذه المرة في بركة ماء أو زنزانة الماء التي وضعت بها الحاجة الفاضلة زينب الغزالي وتصف الحاجة زينب هذه الزنزانة فتقول: «وجاء الزبانية يسوقوني بسياطهم لأقفز إلى الماء فأمتنع فترتفع جاهليتهم وتزداد حمية سياطهم فأسقط على الأرض فقد كان العذاب فوق طاقتي بكثير ويهرع إليّ صفوت والجندي سعد وجندي ثالث يدعي سامبو هكذا سمعتهم ينادونه وحملني الثلاثة وقذفوا بي إلى البئر وأفتح عيني فإذا بي أقف على أرضية صلبة! وعرفت أن الماء لم يكن بئراً وإنما هو زنزانة من الماء فأتجه إلى الله وأقول بأسمك اللهم سلّمت لك أمري وأنا أمَتُكْ وعلى عهدك ما استطعت، ألبسني أردية حبك واغدق عليّ من صبرك يا الله.

«ويريد صفوت أن يزيد طوفان العذاب فيقول وسوطه ينزل على جسدي حسبما اتفق اقعدي يا بنت الـ. . كيف اقعد في هذا الماء؟ إن هذا مستحيل فيقول الجلاد بلسانه وسوطه: اجلسي. . . أظن تعرفين هذا جيداً، أظن تعرفين مهارتك واقعدي، وجلست فصارت المياه إلى أسفل ذقني وقال صفوت إياكِ أن تتحركي ولو حركة واحدة، جمال عبدالناصر أمر بجلدك كل يوم ١٠٠٠ جلدة بالسوط على كل حال

---

(١) ص ٩٠.

أحب أُعرفك التسعيرة هنا، الحركة بعشرة سياط، وقال صفوت: إعلمي ـ يا حلوة ـ لو نمت فالسوط يوقظك، هذه الجلسة فقط، إذا وقفت فعشرة سياط ومد رجلك ثمنه خمسة سياط ومد ذراعك خمسة سياط، علمت ـ يا حلوة ـ هذه التسعيرة؟ فلينفعك الهضيبي أو سيد قطب.

الضرب بالسوط على كل حال أهون من التجمد في الجلسة دون حركة ولهيب السوط أهون من عذاب الماء، أخذتُ أُفكر كيف أتحرك لو مددت رجلي سيصل الماء إلى فمي فلم يكن بُد من الوقوف وأتحمل عشرة سياط وفوضت أمري إلى الله وقلت يا رب أنت معي ووقفت!!!

خُيِّل إليّ أن الجُند نائمون وسمعت أذان الفجر فتيممت على الحائط لأن الماء كان قذراً جداً لا يصلح للوضوء وأديت ركعتي السُنّة ودخلت في ركعتي الفرض وهنا فتحت الزنزانة وهوى السوط على جسمي فجلست كما كنت فاغلق الباب وأخذت أُردد: حسبنا الله ونعم الوكيل حتى تأخذني سِنة من النوم فيوقظني الماء الذي يصافح ذقني، كانت زيارة سامبو وسوطه لا تقل عن خمس مرات في الليلة الواحدة فكان لا بد من الحركة وكان لا بد من السوط. وهكذا تكررت زنزانة الماء عدة ليال[1].

رابعاً: شجاعة وجرأة في الحق:ـ

وسنورد هنا بعض المشاهد التي تمثل الشجاعة والجرأة عند السيدة الفاضلة زينب الغزالي كما روتها عن نفسها.

«وفي اليوم الثاني طلبوا مني أن أذهب لأتحدث في التلفزيون على أن يُملوا عليّ كلاماً من زورهم وبهتانهم على الإخوان فقلت: لن أقول إلّا الآتي إذا ذهبت إلى التلفزيون:

«إن جمال عبد الناصر يحارب الإسلام في شخص جماعة الإخوان المسلمين

---

(١) ص٩٣، ص ١١٥.

ولذلك نحن نحاربه لأنه قال أن الحُكم بالقرآن رجعية وتأخر وتعصب مقيت ولأنه يستورد مواد أحكامه وتشريعاته من الدب الأحمر الشيوعي ومذهبه الإلحادي الذي يقول لا إله والحياة مادة، لهذا نحن نحاربه»، فجُلدتُ وأعدتُ إلى الزنزانة[1].

وتجيب على سؤالهم بأن تكتب كل معارفها من الإخوان الإجابة التالية:ـ

«إن في كثير من البلاد أصدقاء عرفوني عن طريق الدعوة الإسلامية فحركتنا في الأرض هي لله سبحانه وتعالى يسوق إلينا مَنْ يختار وجهته وطريقه الطريق الذي سلكه من قبلنا أصحاب محمد ﷺ والسلف الصالح.

إن غايتنا أن ننشر دعوة الله وندعو للحكم بشرعه وأني بأسم الله أدعوكم أن تتخلوا عن جاهليتكم وتجددوا إسلامكم وتنطقوا بالشهادتين وتسلموا لله وجوهكم وتتوبوا إلى الله من هذه الظلمة التي رانت على قلوبكم فأغلقتها في وجه كل خير، لعل الله يخرجكم من أقفال الجاهلية إلى نور الإسلام وبلّغوا ذلك لرئيس جمهوريتكم لعله يتوب ويستغفر ويعود للإسلام ويخلع عن نفسه أطمار الجاهلية فإن أبى فأنتم مسؤولون عن أنفسكم وعن الطريق الذي اخترتموه، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمد عبده ورسوله[1].

لقد كانت هذه إجابات تساؤلات من زبانية السجن الحربي دون حضور عبدالناصر شخصياً أما ما قالته عند حضور عبدالناصر شخصياً ومع المشير عبدالحكيم عامر: فتقول في وصف هذا المشهد في مطلع الباب الخامس تحت عنوان وسمع فرعون:

«أفقت يا إلهي، إنني ما زلت على الأرض أمامهم جثة هامدة، إنهم اسعفوني وبصعوبة شديدة حاولت النظر في الحاضرين فإذا بجمال عبد الناصر يتكيء على كتف عبدالحكيم عامر ويمسك في يدة نظارة سوداء، عندما رأيت جمال عبدالناصر

---

(١) ص ٥٤.

وعبدالحكيم عامر، نسيت ألمي ودبت في جسدي يقظة غريبة وانتابني نشاط غريب، كان إحساسي أن هناك شيئاً خطيراً سيحدث فكل ما يدور حولي يقوّي عندي هذا الإحساس.

وقال شمس بدران وهو ينفخ يا بنت يا زينب أُريد أن تجيبني على سؤال أُوجهه إليك بصراحة وإلّا . . . افترضي يا زينب أن الإخوان المسلمين هم الذين يحكمون البلد وأننا نقف أمامكم تحاكموننا فماذا كنتم تفعلون بنا؟

فأجبت في قوة وشجاعة: نحن لا نسكن في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ولا نلوث أيدينا بما لوث به الظالمون أيديهم نحن لا نغمس أيدينا في الدم. نحن لا نجلس في مقاعد طواغيت الأرض.

فقال شمس بدران كتائه يضرب في الصحراء في يوم عاصف يا بنت الـ. ، . انا أقول افترضي جدلاً إنكِ جالسة مكاني ماذا تفعلين معي: فقلت: الإسلام عدل ونور ورحمة فلا سياط ولا قتل ولا تعذيب ولا سجون ولا نفي ولا دفن للأحياء ولا تمزيق لأجساد الشهداء رفعت بكر ومحمد عواد وإسماعيل الفيومي: ولا تشريد أطفال ولا ترمل نساء لا فراعنة ولا وثنية لكن الحق والعدل، الكلمة تواجهها الكلمة والحجة تواجهها الحجة.

صرخ شمس بدران كالصريع: اخرسي، اخرسي علقها يا صفوت اجلدها: وعلقني صفوت وسياط المجنون تهوى على كل جزء من جسمي»[1].

هذه مجموعة من صور الجرأة غير العادية لامرأة مسلمة عاشت في هذا القرن وصوراً عديدة من صور التعذيب التي تعرضت لها وسنرى الآن صورة من صور الإغراء الذي صاحب التعذيب طوال فترته وتصف زينب الغزالي واحدة من حالات الإغراء فتقول: «وعقب صلاة العشاء فتح باب الزنزانة ودخل الشرير صفوت الرويي

(١) ص١٤٤.

ومعه جندي آخر وأخذاني إلى المكتب الذي سبق أن دخلته مرتين قبل ذلك، وجدت رجلاً يجلس على المكتب أشار إلى مقعد أمامه لأجلس عليه ثم قال: أنا آليت على نفسي أن انتشلك من البئر وسأتفاهم معك على بعض الأمور تذهبين بعدها إلى البيت ليس هذا فقط، أنا أقول لك باسم جمال عبدالناصر إن تم التفاهم وعقلت فسيصدر الرئيس قراراً بإعادة المركز العام للسيدات المسلمات وسيرجع لك مجلتك وسيعطيك إعانة للمجلة ألف جنيه شهرياً وسيصرف لك مبلغاً كبيراً للجمعية ويعيدها أحسن مما كانت إن تفاهمتِ معي سأرسل في إحضار ملابسك وبعد ساعة ستقابلين عبدالناصر، والريس ناوي يقيل حكمت أبو زيد ـ وزيرة الشؤون الاجتماعية ـ ويُعيِّنُكِ مكانها».

ولكنها ترفض كل الإغراءات وتصمد أمام كل ألوان التعذيب.

ويُحكم عليها بـ ٢٥ سنة مع الأشغال الشاقة ويُحكم على حميدة قطب من نفس الجماعة والتي شاركتها التعذيب بـ ١٠ سنوات أشغال شاقة بسبب تهم ملفقة لا دليل عليها إلا تخيلات زبانية السجن الحربي وصنم الرجعية العربية الحديثه فرعون مصر.

ولنا بعد ذلك مسألة:ـ

أين كانت الحركات النسائية العربية بشكل عام والمصرية بشكل خاص عندما كانت تُعذب المرأة المسلمة كل هذا التعذيب في السجون الناصرية؟

لو أن امرأة جُرحت ظلماً في نيكاراغوا أو ضُربت أو سُجنت في كوستاريكا لثارت ثورة الاتحادات النسائية العربية وضجت ورُفعت برقيات الاستنكار والتنديد لأن امرأة سُجنت ظلماً في أقصى بلاد الأرض وتقول إنها تدافع عن المرأة مهما كان دينها ووطنها ومهما كان الظلم الواقع عليها ومهما كان مصدره، وتتبجح الاتحادات النسائية العربية بشكل عام والمصرية بشكل خاص بمواقفها الإنسانية وإنها فعلت كذا وعملت كذا، نعم إننا نقر بعض الأعمال الإنسانية ولسنا ضد أي عمل إنساني

شرعي ولكن أليس كان من الأولى بالاتحادات المصرية النسائية أن تقف إلى جانب المرأة المصرية المسلمة في محنتها في السجون الناصرية بدلاً من تحرير نساء العالم الغربي وحل مشكلاتهن، ولكن الاتحاد النسائي المصري لم يفعل.. لماذا؟ لماذا لم تقف المرأة المصرية في الاتحاد النسائي المصري يومذاك إلى جانب المرأة المسلمة المصرية وهي التي نظّرت كثيراً في المرأة وحقوقها وحريتها وأسمعت كل العرب دوي صوتها في الخلوص من الظلم الذكوري المزعوم، والحركة النسائية المصرية من أقدم الحركات النسائية العربية... أين كانت يومذاك؟

أحسب أن الاتحاد النسائي المصري آنذاك كان أمام الأحداث الجارية أحد ثلاثة اتحادات:

الأول: ـ اتحاد يغفل عمّا يجري في مصر من انتهاكات لحقوق الإنسان ويجهل واقع المرأة المسلمة المصرية.. ولكن أرى أن هذا الاحتمال بعيداً كل البُعد وذلك لعدة أسباب: ـ

أولاً: ـ أن الحركة الإسلامية كان قد اعتقل منها حسب بعض المصادر مائة ألف ما بين رجال ونساء وقادة وجنود في الحركة وهل يعقل أن الاتحاد النسائي المصري بقيادته وجنوده لم يكن يعلم باعتقال المائة ألف؟ هل يُعتقل مائة ألف ولا يشعر بهم أحد؟ هل هذا يُصدق.. إذاً كيف تعلم بانتهاكات لحقوق الإنسان لامرأة في أقصى بلاد الأرض.

ثانياً: ـ إنه كان من بين المعتقلين قيادة الحركة الإسلامية المصرية أمثال حسن الهيضي المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين والإمام الشهيد مفسر القرآن الكريم سيد قطب الذي عرف القاصي والداني بإعدامه حتى أن بعض القيادات العربية تدخلت بالتوسط لدى عبدالناصر لعدم إعدامه وكان من بين المعتقلين الداعية المشهورة زينب الغزالي ـ كمارأينا ـ رئيسة المركز العام للسيدات

المسلمات ـ هل كان الاتحاد النسائي المصري بعيداً إلى هذا الحد عن مصر وابناء مصر.

ثالثاً: ـ إنه لا يوجد حي من أحياء مصر ـ إذا سلّمنا بأن عدد المعتقلين مائة ألف ـ إلا وخرج منه مجموعة من شبّان وشابات الإخوان المسلمين والأخوات المسلمات إلى السجون الناصرية وحتى لو كان الرقم مبالغ فيه ولنفرض أنه ١٠,٠٠٠ فقط كان بينهم القيادة وهم مشهورون ومعروفون في مصر ويكفي أن زينب الغزالي كانت أشهر من أن تُعرف لدى الاتحاد النسائي المصري سواء على مستوى القيادة أو العضوات.

رابعاً: ـ إن مقاومة الإسلام والقضاء على الإسلاميين لم يكن بالشيء الذي يصعب اكتشافه أو معرفته بل إن القاصي والداني كان يعرفه فكيف بالاتحاد النسائي المصري خصوصاً إن سياسة اللاإسلامية كانت سياسة عبدالناصر طوال فترة حكمه.

إن الاتحاد النسائي المصري كان يعلم ـ كغيره من أصغر أفراد الشعب المصري ـ مما يجري في السجون الناصرية لأبناء وبنات الحركة الإسلامية ولكن صمت ولم يتفوه بكلمة لإنقاذ بنات جنسهن من ربقة الاستعمار الداخلي.. لماذا؟

الثاني: عل كراهية الاتجاه الإسلامي، بل كراهية الإسلام نفسه والعمالة للمستعمر الغربي هو السبب الرئيسي لمواقف الاتحاد النسائي المصري التخاذلية عن قضية تحرر المرأة المصرية المسلمة من السلطة الناصرية وسجونها، إذ أن الاتجاه الإسلامي يقف حائط صد في وجه الإلحاد والإباحية وهي تريده الآن والاستعمار يريده كذلك فمن منطق كراهيتها للإسلام تكره الداعين والداعيات له بل إنها لا ترى بأساً في الإيقاع بهم ليصفوا لهن الجو ويعثوا في الأرض فساداً ليرضى عنهن المستعمر الجاثم على الصدر العربي حتى الساعة هذه.

إن الحركات النسائية المصرية هي ربيبة الاستعمار وهو الذي أراد لها أن تكون وحتى لا تكون هذه الاتهامات خالية من الدلائل والبراهين نورد هذه الأدلة:ـ

نشرت مجلة روز اليوسف في إبريل سنة ١٩٥١ بالعدد ١١٩٠ ما يلي :-

استقالت عضوة في إحدى الهيئات النسائية وأرسلت استقالة مسببة إلى رئيسة الهيئة تتهمها فيها بأخذ إعانات مالية من إحدى السفارات الأجنبية وقد قبلت الرئيسة الاستقالة دون عرض الخطاب على مجلس الإدارة. . ولم يمض قليل حتى أكدت (الجمهور المصري) بالعدد ٢٤ النبأ السابق وزادته وضوحاً حيث قالت وتشترك كل من السفارة البريطانية والأمريكية بمبلغ ألف جنيه سنوياً في بعض المجلات التي يصدرها حزب «بنت النيل». وهكذا كشف الغطاء وظهر المستور وعرف الناس سر هذه القوة الجبارة التي استطاعت إصدار ثلاث مجلات مختلفة في آن واحد وعلى ورق مصقول[١].

ومما يثبت علاقات الحركات النسائية بالصهيونية ما يلي :-

فقد دعا المؤتمر النسائي الدولي إلى اجتماع في استكهولم اتخذ فيه قرار يقضي بمطالبة وزير الداخلية السويدي بإنزال أشد العقوبات على مسيو (انيراير) لمواصلة أعمال الدعاية ضد الصهيونيين في السويد.

وقد كتب مسيو (انيراير) على إثر ذلك إلى الجامعة العربية والحكومة المصرية يستنكر موقف مندوبات الهيئات النسائية المصرية الممثلة في المؤتمر لموافقتهن على هذا القرار[٢].

ومما يؤكد صلة الهيئات النسائية الدولية بالاستعمار ما كتبته الزعيمة الهندية (كاسيلا ديفي) في المصري في ٢١ إبريل سنة ١٩٥١ حيث أعلنت استقالتها من الاتحاد النسائي الدولي في جنيف لأن واقع تحت سيادة الدول الغربية الاستعمارية ويعارض مجهودات السلام وخاصة من أجل وقف الحرب في كوريا[٣].

---

(١) محمد عطية خميس ـ الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار ص٨٩.

(٢) ص٩٤.

(٣) ص ٩٥.

من خلال هذه المقتطفات فإن الاتحاد النسائي المصري بشكل عام وحزب بنت النيل بشكل خاص كان له علاقات مباشرة أو شبه مباشرة أو علاقات عادية ودية على الأقل في فترة الخمسينات فكيف باتحاد تحركه الصهيونية والاستعمار هل يقف إلى جانب حركة نسائية أو غير نسائية تحمل الطابع الإسلامي؟ هذا غير ممكن وإلاّ فسوف تغضب الصهيونية والاستعمار.

الثالث: وقد يقول قائل أو قائلة ليس هذا المبرر ولكن الخوف من بطش عبد الناصر وظلمه . . . ونقول لها يكفينا مزايدات فإذا وصلت الاتحادات النسائية إلى هذا الحد من الجبن والخوف ولا تستطيع أن تقول لظلوم غشوم إنك ظالم كما قالت المرأة المسلمة على مر تاريخها وحتى الوقت الحاضر ـ وكما رأينا رئيسة المركز العام لجماعة السيدات المسلمات الحاجة الفاضلة زينب الغزالي مثالاً على ذلك ـ فهل تستحق مثل هذه الاتحادات الكرتونية أن تقود النساء المصريات المسلمات نحو التغيير.

إن الحركة النسائية التغييرية البنّاءة هي الحركة التي تستطيع أن توجه المرأة للقضاء على فساد المجتمع وفساد الأنظمة ليست هي الحركة التي توجه المرأة إلى الحياة (المكياجية والموضات) وتشعرها بأن ذلك هو دورها في المجتمع.

هذا بالإضافة إلى أن الخوف والجبن مع التغيير الإيجابي لا يلتقيان إطلاقاً فالجبن عدو التغيير الأول وداؤه المزمن، أما التغيير السلبي نحو القاع فالطريق إليه مفتوحة وبلا خوف أو جبن.

فالمرأة إن أرادت أن تصبح مسلمة حقيقية تتفاعل مع عقيدة الإسلام فستواجه بصعوبات بالغة مع واقع مجتمعي عربي متخلف عقدياً واجتماعياً وسياساً وتخلف في تصوره للكون والحياة والإنسان نتيجة بعده عن مصدر التلقي ومصدر التوجيه ومصدر التربية ومصدر التشريع، القرآن الكريم وسُنّة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

فأين الحركة النسائية الإسلامية من الحركة النسائية غير الإسلامية، فهذه تدعو إلى الله وتلك تدعو إلى الشيطان، هذه تدعو إلى تحكيم كتاب الله وتلك تدعو إلى أصنام القرن العشرين، هذه تدعو إلى الحفاظ على الأسرة وهذه باعت الأسرة بثمن بخس، هذه تدعو لمقارعة الباطل وأهله وتلك جزء من الباطل وأهله، وهذه تدعو إلى الأخلاق والفضيلة وتلك تدعو إلى الفحش والرذيلة، هذه تدعو إلى الستر والحجاب وتلك تدعو إلى الكشف والسفور، وهذه تدعو إلى العلم والعمل لبناء الوطن والإنسان وتلك تدعو إلى العلم والعمل ولكن لهدم الوطن والإنسان، هذه تقف في وجه الاستعمار وبوجه الأعداء تقارعهم وتقاومهم وهذه تدعم الصهيونية وتؤيد الاستعمار بشكل مباشر أو غير مباشر. وهذه تدعو إلى التمايز بين المسلمة وغير المسلمة وتلك تدعو إلى التشبه الكامل بالكافرات، وهذه تستمد تعاليمها من القرآن الكريم وتلك تستمد تعاليمها من الدب الأحمر ـ الذي انهار ـ والماسونية العالمية والصهيونية الحاقدة، وهذه أشغلت نفسها بقضايا الوطن والأمة وتلك أشغلت نفسها بقضايا الذات والموضات، هذه مؤمنة ورعة تقية وتلك خبيثة شقية فاسقة، وهذه شريفة عفيفة غلمة على زوجها وتلك لا شرف عندها ولا عفة وغلمه مع زوجها وغيره، وهذه كلها حياء وتلك كلها وقاحة، وهذه كلها سكون وهدوء وتلك كلها صخب وصراخ، هذه تشعر بعاطفة الأمومة وتلك إلى الخروج الذي لا ينقطع من البيت، وهذه آمنة مطمئنة وتلك قلقة وتعيسة، هذه عرفت دورها القيادي ووعته وتلك عرفت دورها المكياجي الإفسادي ووعته، وقبل هذا وذاك فإن الأولى أخذت من «لا إله إلا الله» عقيدة ومنهاج وحياة أما الثانية فقد أخذت من أصنام القرن العشرين منهاج الحياة.

فأي الفريقين أقرب إلى الإصلاح؟ وأي الفريقين أقرب للفطرة؟ وأي الفريقين أقرب للواقع؟ أيهما حركة البناء؟ وأيهما حركة الهدم؟ وأيهما أحق أن تكون زوجة صالحة ومربية فاضلة؟ وأيهما أحق أن تتبع وتلتحق بركبها المرأة؟ حركة الهدم النسائية؟ أم حركة البناء النسائية؟ إن الحق لأحق أن يتبع.

وبعـــد

وبعـــد،،،،

لقد كانت فترة صدر الإسلام العصر الذهبي بالنسبة للمرأة المسلمة الحركية. فهي تساهم في تربية الفرد والاهتمام بالأسرة وتساهم في النشاط العام وتتفاعل مع المعطيات الجديدة تفاعلاً كاملاً فهي تشارك وتستشار في كافة مناحي الحياة حتى السياسية والعسكرية ـ إلا ما نص الشارع الحكيم في استثنائها فيه مثل منصب الخلافة.

ولكن هذه المكانة المرموقة التي وصلت إليها المرأة المسلمة بدأت بالتراجع حتى وصلت إلى حافة الإنهيار والحقيقة التي لا جدال فيها إنه كلما ضعفت العقيدة الإسـلامية في نفـوس المسلمين ازدادت مكانة المرأة انحداراً ـ وهذا الأمر يصبح واضحاً جلياً للمتتبع تاريخ المرأة المسلمة عبر التاريخ الإسلامي ـ.

وهذه الحقيقة تعطينا مؤشراً واضحاً لطريق الخروج من مأزق المرأة المسلمة المعاصر فالإمّعيّة التي أصابت المرأة المسلمة المعاصرة لم تصبها وحدها بل هو مرض خبيث أصـاب جسم الأمـة كامـلاً والـركود الحركي الذي أُصيبت به المرأة المسلمة المعاصرة لم يكن مرضها فقط بل هو داء عضال أصاب كل المجتمع وأن السنة الحضارية التي أُصيبت بها المرأة المسلمة المعاصرة لم تكن مرضها وحدها كذلك بل هو مرض شمل كل المجتمع ذكوره وإناثه.

والمرأة إذا أرادت أن تتخلص من الإمّعيّة والارتجالية والعفوية والركود الحركي والجمود الفكري والسبات التغييري فإنها لا تستطيع أن تتخلص منها إلا إذا تخلص المجتمع كاملاً من هذه الأمراض القاتلة.

وللخلاص من هذه الأمراض الخبيثة وللعودة بالمرأة المسلمة إلى سابق عهدها لا بد أولاً من استئناف الحياة الإسلامية ولا بد أن تشارك المرأة المسلمة في عملية الاستئناف باعتبار أن مشاركتها الحركية في هذه العملية امر لازم لا بد منه وعدم إشراكها في هذا العمل يعيق محاولات الحركات الإسلامية في استئناف الحياة الإسلامية وإقامة الخلافة من جديد.

وإن استؤنفت الحياة الإسلامية فيصبح تحرير المجتمع واقعاً ثم تأتي بعد ذلك عملية تحرير المرأة وفق المعطيات الإسلامية حتمية لا بد منها بسبب أن تحرير المرأة المسلمة ليس بيد الخليفة المسلم ولا بيد الرجل المسلم بل هو حق لازم لها ضمنته لها مصادر التشريع في الدولة الجديدة أو بتعبير آخر الدستور الإسلامي الملزم لكافة الأفراد والحكومات على السواء.

وفي مجال المحاولات النسائية لاستئناف الحياة الإسلامية وترميم الواقع النسوي والمجتمعي المتدهور وإعادة ما خربه الاستعمار تشكلت مجموعة من الحركات النسائية الإسلامية في هذا القرن مثل جماعة الإخوات المسلمات وجمعية السيدات المسلمات، وقد ساهمت هذه الحركات النسائية مساهمة فاعلة في محاولة ترميم المجتمع بشكل عام والمجتمع النسوي بشكل خاص الذي أصابه الفساد الحضاري، وإعادة تحكيم كتاب الله العزيز في الحياة العامة للدولة الإسلامية.

لقد عملت الحركة النسائية الإسلامية ولا تزال تعمل والمطلوب منها كثير والجهد عظيم للوصول إلى الغاية المنشودة، فعلى الحركة النسائية الإسلامية أن تضع في أولى مهماتها:-

إعادة تحكيم كتاب الله باعتباره المعروف الأكبر الذي يجب أن يعمل الجميع له - ذكراً أو أنثى - ويجب على الحركة النسائية أن تدرك أن بناء المجتمع لا يحتاج إلى رجال يكدون ويتعبون ويفكرون ويثورون ونساء كاسيات لاهيات وكأن الإسلام واستئناف الحياة الإسلامية لا يعدل عندهن إلا كفستان اشترته قبل سنين وانتهى

أجله، بل يحتاج إلى رجال ونساء يعملون معاً لتغيير الواقع المأفون. والمطلوب من الحركات النسائية الإسلامية أن لا تفكر في ذاتها الخاصة فقط ـ كحال معظم الحركات النسائية الحديثة الأخرى ـ بل عليها أن تفكر في ذاتها العامة وتضع حلولاً لكافة المشكلات الوطنية ويقع على عاتق الحركة النسائية الجديدة أجلّ وأعظم الأعمال ألا وهو تحديد الهوية بعد أن ضاعت بين الشرق والغرب وبين الأصالة والمعاصرة والمطلوب من الحركة النسائية الجديدة أن تفكر في أنجح الطرق لتيسير الزواج للكثير من الفتيات العانسات بسبب عزوف الشباب عن الزواج لارتفاع المهور والمطلوب من الحركة النسائية الجديدة أن توجه المرأة نحو العمل التربوي داخل الأسرة وأن يشكل هذا العمل جلّ اهتمامها لا أن يكون بالدرجة الثانية من حيث الاهتمام.

وهكذا تكون الحركة النسائية الانقلابية التغييرية قد بدأت تؤثر على المجتمع المحيط وتأخذ على عاتقها ـ كما أخذ بعض الرجال ـ تغيير الأوضاع إلى أوضاع أفضل يستفيد منها الرجال والنساء وكافة أفراد المجتمع.

فلنعمل جميعاً نحو الفكر النسائي الحركي المنظم لدعم الحركة النسائية الإسلامية العالمية.